مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences

ISSN: 1112-9751

عنوان المقال:

التنظير الحربي في الإستراتيجية والتكتيك عند أبو بكر الطرطوشي ت.(520 هـ/1127م) من خلال كتابه سراج الملوك

أ. خميسي بولعراس ، جامعة سطيف 2 ، الجزائر

التنظير الحربي في الإستراتيجية والتكتيك عند أبو بكر الطرطوشي ت.(520 هـ/1127م)

من خلال كتابه سراج الملوك

أ.خميسي بولعراس

الملخص:

لقد قدمت لنا المصادر والدراسات نخب الغرب الإسلامي تقديما كلاسيكيا ، إعتمد على تبيان صور هذه النخب من الناحية التاريخية والفقهية والعلمية والأدبية والدينية ولكنها أهملت جانب مهم من حياة هذه النخب وهو الجانب العسكري الذي غيب في مثل هذه الدراسات فرغم إبداعاتها ومساهماتها في النواحي السابقة الذكر إلا أنها ساهمت في التنظير الحربي وإستراتيجية القتال وهو ما نلمحه من خلال مؤلفاتهم وعلى رأسهم أبو بكر الطرطوشي الذي قدم لنا ف مؤلفه ((سراج الملوك)) تنظيرا حربيا في إستراتيجيات القتال من حيث الجوسسة والخدع الحربية وطرق القتال فكان بتنظيراته هذه عسكري بإمتياز يندهش له إنسان هذا العصر.

الكلمات المفتاحية: التنظير الحربي، أبو بكر الطرطوش، سراج الملوك.

Abstract:

Sources and historical studies presented the western Islamic intellectual elite classically based on the religious, historical, and literary aspects; mean while they ignored completely the military aspect. Despite their innovations and contributions to the previous aspects, the western Islamic intellectual elite contributed in military the ories and strategies .Abu Bakr Muhammad at-Turtushi (1059 - 1126) presented in his book (KitābSirāj al-Mulūk- The Lamp of Kings) modern military the ories about strategies of fighting and battles in terms of spying, war plots, methods of fighting, and weapons functions. These important works makes At-Turtushi one of the most prominent military theorists in the middle ages. Reading his works may let you astonished.

Keywords: western Islamic intellectual elite, military aspect, Abu Bakr Muhammad at-Turtushi

لقد كانت التراجم والسير في الحقل التاريخي مادة دسمة للباحثين الذين انصبت بحوثهم حول رحلات العلماء والفقهاء ونشاطهم العلمي ومساهماتهم في التدريس والحلقات، فنشروا الكثير من نوازلهم وفتواهم ومذاهبهم فكانت دراسات تمحورت حول الجانب الفقهي والحديث والفلسفة والشريعة والملل والنحل، فكانت ذات طابع حماسي قصصي فتشابهت بحوثهم من حيث المنهج والطرح [1].

وإذا كانت هذه الجوانب من العلماء والفقهاء قد أخذت حقها من الدراسة والتحليل فإنها قد غيبت في جانب آخر وهو مساهمتهم في جانب التنظير العسكري، فقدمنا للقارئ والآخر المستشرق علماءنا وفقهاءنا كأطباء وكيميائيين وفلاسفة وشعراء ...إلخ ولم نقدم لهم الصورة العسكرية في مجال التنظير الحربي، لذلك أردنا أن نكشف اللثام عن هذا النوع من التاريخ المغيب في مؤلفات فقهائنا، ولعل من بين هؤلاء العلماء الفقهاء أبو بكر الطرطوشي الذي قدمته المصادر والبحوث كفقيه زاهد ومتصوف [2]. ولكن عند قراءتنا مؤلفه سراج الملوك وجدنا أنه من أكبر المنظرين في الإستراتيجية والتكتيك الحربي وفنون القتال، يندهش له القارئ وكأننا أمام خبير عسكري.

فما هي أطروحات الطرطوشي في مجال التكتيك والاستراتيجية الحربية من خلال مؤلفه سراج الملوك ؟

قبل التطرق إلى تحليل هذه الإشكالية وجب أن نعرّف بمولده ونشأته ومؤلفه بشكل مختصر.

1- **مولده ونشأته**: هو محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي المعروف بابن أبي رندقة ولد بطرطوشة [3]. 450 هـ كان إماما عالما زاهدا ورعا متواضعا متقشفا، سكن الشام مدة ودّرس بها، درس الفقه ومسائل الخلاف عند الباجي ثم محمد بن أحمد الشاشي وأبا أحمد الجرجاني وأبا سعيد المتولي وأبا علي التستري [4].

وعندما دخل مدينة الإسكندرية علا كعبه في الفقه وانجلب إليه مائتي فقيه مفتي، كان حارسا للبساتين نهارا ليتفرغ في الليل لدراسة العلم، توفي بالإسكندرية 26 جمادى الأولى 250هـ/ 20 يونية 1127 م وعمره 69 سنة [5].

وما يمكن أن نستنتجه من خلال رحلاته أنه تكون من الناحية الفقهية عن طريق أبو الوليد الباجي، كما أعطته المدرسة النظامية متنفسا فقهيا وشهرة علمية بزغت بالإسكندرية فتهافت عليه الطلاب من كل فج، كما ساهمت الحالة السيئة للإسكندرية من الناحية العلمية كاضطهاد العلماء وتعطيل الشعائر الدينية والأزمات الاجتماعية سببا في بروزه أكثر [6].

وترك الطرطوشي مؤلفات عدة تبين علو كعبه في ميدان الفقه مثل الكتاب الكبير في مسائل الخلاف، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، كتاب الأسرار، كتاب الرد على الإحياء، رسالة في تحريم الاستمناء وأخرى في تحريم جبن الروم، الحوادث والبدع، كتاب الفتن، رسالة في تحريم الغناء واللهو عن الصوفية في رقصهم وسماعهم، النهاية في فروع المالكية ... إلخ [7].

2- كتاب سراج الملوك: ذخيرة علمية تاريخية أدبية

هو أكبر مؤلف من نوعه من حيث ضخامة مادته وتنوع موضوعاته لكنه كتب بصيغة دينية في أسلوبه، يورد موضوعات مستقلة متباعدة ينقصها الربط والتنظيم [8].

لم يكن يهدف الطرطوطشي من خلال سراج الملوك إلى الجانب العلمي وإنما كان هدفه فنيا، يريد أن يؤثر في النفوس بالقصة أو المثل أو الموعظة، ضمه الكثير عن تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وأرائه القيمة [9].

ألف هذا الكتاب خلال سنة كاملة من شوال 515 هـ إلى شوال 516 هـ وقدمه هدية إلى الوزير الذي أطلق سراحه المأمون البطائحي، وهو كتاب في فن السياسة والحكم وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية [10].

وقسّم كتابه سراج الملوك إلى أربع وستين بابا كالعدل والشجاعة والجود والسخاء والصبر والعقل والدهاء ...إلخ وما يهمنا هو الباب الواحد والستون الذي يدور حول الحروب وتدبيرها.

كما كان هذا الكتاب ركيزة أساسية عند كل من صاحب الشهب اللامعة ابن رضوان المالقي الذي أخذ منه فصولا كاملة ونسخها وكأنك تقرأ الطرطوشي [11].

كما استفاد عبد الرحمن بن خلدون من السراج واعترف بأن الرجل من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف في علم الاجتماع والعمران، ولكنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها حسب ابن خلدون [12].

مصادر الطرطوشي في الفكر العسكري:

من خلال قراءتنا لسراج الملوك وجدنا أن الطرطوشي اعتمد على مصادر أهمها:

- التكوين الحربي لأسرة الطرطوشي، إذ كانوا رجال حرب وقياد في الجيش، من ذلك أبو الوليد بن فتحون، وهو خال والدته، كان من رجال الحرب الشجعان [13].
- اطلاعه على خبرات وتجارب الأمم السابقة وما وصفوه في تدبير الدول كالفرس والروم والعرب والهند، وتوظيف ذلك في مشروعه الحربي، من ذلك قوله: " واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتبا ولكل امة نوع من التدبير " [14].
- احتكاكه بالجيش وجعله مصدرا في كتابه، حيث يقول: " فحدثني رجل ممن حضر الوقعة من الأجناد " [15]، ويقصد وقعة وشقة التي انهزم فيها المسلمون بقيادة المستعين بن هود [16].
- أبو الوليد الباجي ودوره في إثراء المعارف العسكرية للطرطوشي حيث قدم له أثناء التدريس جملة من معارك المنصور بن أبي عامر وبين له حيلها ومكائدها [17].

3- **التنظير الحربي عند الطرطوشي:**

أ- الإعداد المعنوي والعسكري: الإعداد عنصر أساسي في الحرب وهو كل ما في مقدور البشر من العدة والآلة، واستشهد الطرطوشي بالآية : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " [18]

يقول الشيرازي في هذا الشأن: " هو إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وعلوفة ليفوق ذلك عليهم ... ويكون على الحرص أوفر وعلى منازلة العدو أقدر " [19].

والإعداد هو خطة ممنهجة وتخطيط مستمر وغير محدود تشارك فيه جميع أجهزة الدولة تحت قيادة موحدة، وعلى أسس علمية تتماشى وإمكانياتها، ومن ثمة تتحول الدولة من حالة سلم إلى حالة حرب [20]، وله أشكال كثيرة مثل الاستعداد المعنوي وهو مصدر قوة فاعلة أثناء الحرب، وهي القوة الكامنة في باطن الإنسان التي تكسبه القابلية على الاستمرار [21].

فالجندي إذا دخل المعركة وهو محبط نفسيا فلن ينفعه السلاح الذي يحمله، لذلك ركز الطرطوشي على عنصر الصبر كأساس للنصر [22].

والجانب المعنوي يشرف عليه خطباء يبعثون الحماسة ويذكرون الناس بالحرب والغزوات السابقة ومواقع الشجعان ومصارع الفرسان ومنزلة الشهداء من ثواب في دار النعيم، فكل ذلك يقوي العزائم ويشد نفوس أهل الحرب [23].

ويقصد بالروح المعنوية الحالة العقلية للفرد في وقت معين وتحت تأثير ظروف معينة، قد نجده شجاعا قويا ممتلئا بالحماسة وفي ظروف أخرى نجده متخاذلا فاقد النشاط [24]

ويركز الطرطوشي على الإعداد العسكري وخاصة عنصر التدريب الذي تقف عليه مدى جاهزية الجيش للمعركة، ويجعل التدريب على الرمي من الأولويات ومدى فعاليته في المعركة ويستشهد بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم حول أهمية الرمي [25].

إذن فالتدريب جزء من الإعداد العسكري، والذي يشمل ركوب الخيل والرماية والأسلحة المختلفة، ويربط الطرطوشي كل ذلك بضرورة توفير المال لأنه أساس كل هذه العمليات المركبة [26].

2- القتال بإستراتيجية نظام الصف والتخصص القتالي: القتال بنظام الصف يشدد عليه الطرطوشي لما له من فوائد، وهو نظام ابتكره المسلمون حيث كان القتال في الجاهلية عن طريق الكر والفر، ويعني ترتيب المقاتلين بصفوف مستوية متعاقبة [27].

ويجعل الهرثمي الصف المستوي من أنجح الصفوف ويستعمل في البطحاء والسهول، أما الصف الهلالي الخارج الجناحين الداخل الصدر أوثق للقلب، ويشترط فيه أن يحمي الجناحين الخيل المقوية، حيث تكون وقاية له [28].

واستنتج ذلك الطرطوشي من القرآن الكريم لأهمية هذا النوع من القتال، ولا يخفى ذلك على عالم متبحر في الفقه والقرآن والاختلاف [29]، ويعرف ابن خلدون نظام الصف بأنه ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدما، فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو، لأنه كالحائط الممتد أو القصر المشيد لا يطمع في إزالته [30].

ومن عوامل نجاح الصف عند الطرطوشي التخصص في نظام الصفوف من حيث السلاح من الناحية العملياتية الوظيفية، حيث يجعل من رجال الصف الأول الرماحة وهم المسلحون بالرماح الطويلة والدرق والمزارق المسنونة [31]، ويحمون أنفسهم بالتروس من نبال الأعداء ويليهم صف آخر يمسى النشابة وهم رماة السهام ومهمتهم الرمي لإعاقة تقدم العدو وجعله أكثر فوضى وهو سلاح تفتتح به المعركة، ثم نجد صف آخر يتكون من الفرسان وظيفته ضبط النظام بحيث لا يتقدم أحد أو يتأخر، حتى أن المقاتل لا يفكر في التراجع أو الهزيمة [32].

ولعل هذه الفرق المتخصصة في السلاح التي تكلم عنها الطرطوشي مغيبة في كتابات الباحثين الذين ركزوا في دراساتهم – فقط - على الأسلحة من حيث نشأتها ومواد صنعها [33].

4- إستراتيجية الحصار وقطع الدعم اللوجستيكي:

يركز الطرطوشي على هذا الأسلوب ويجعله أساس الانتصار، ويبقى غير مجدٍ في نظره إلا إذا أضيف له عامل وهو قطع الدعم اللوجستيكي [34].

واستراتيجية الحصار هي وسيلة قديمة وأسلوب هجومي تتحدد فيه مستويات المواجهة بين الطرفين ومدى توفر آليات مقاومة الحصار وخطط إحكامه لإنجاحه وفرض الاستسلام على العدو [35].

ثم إن الحصار الطويل يرهق الجيش خاصة إذا كان المحاصرون يتمتعون بادخار غذائي كافي لذلك أكد البعض على ضرورة استراحة الجيش من الناحية البدنية والذهنية؛ أي الحصار بالتداول [36].

وتتركز فاعلية الحصار بقطع الدعم على المحاصرين، ويمنحنا الطرطوشي مثال على نجاح هذا الأسلوب خبر حصار ملك الروم لصقلية الذي وجه خطابا لقواد جيشه جاء فيه: " إذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى حتى إذا ضعفت أخذتموها " [37]. وهذا تدبير حسن؛ لأن المدينة المحاصرة إذا انقطع عنها المدد قل زادها وذاق الناس ذرعا بالحصار، وقلة المؤن والغذاء، فإما أن يستسلموا أو يسهل على جيش السلطان قهرهم عند المواجهة [38].

وحسب اعتقادنا أن الحصار هو الأسلوب الأمثل لنشر الوباء أو ما يسمى حاليا بالحرب البيولوجية، ونستأنس في ذلك بما جاء في كتاب الأدلة الرسمية لابن منكلي، حيث يقول: " إذا فتح المسلون حصنا فوجدوا فيه مأكولا أو مشروبا فلا يبادرون بالتناول منه فربما يكون مسموما مدخرا لمثل ذلك " [39].

أما صاحب الشهب ابن رضوان فيقول: " وإن قاتلت متحصنا باستعمال الآلات التي ترمي بالحجارة ... ورماة السهام المسمومة " [40].

نستنتج من ذلك أن الحصار أفرز لنا حربا من نوع أخرى وأشد فتكا في تسريع الهزيمة وهي حرب مسكوت عنها في التاريخ الإسلامي.

5- الفرق الخاصة:

يقصد بها القوات النوعية ذات التدريب العالي نفسيا وعسكريا وهي القلب النابض للجيش والمحرك التكتيكي له، وتتكون من فئة يسميهم الطرطوشي بالشجعان ذات الشهرة القتالية ذائعي الصيت، وهذا ما يؤكده كذلك الحسن بن عبد الله العباسي حول أهمية هذه الفرقة، حيث أكد على أن يكون عسكر القائد به جماعة من الشجعان متدربين عارفين بأمور الحرب وأنفسهم من القتل فيعول على هذه الطائفة ويقدمهم ويجعلهم مقدمي أجنحته وأطلابه [41].

ويسوق لنا الطرطوشي نجاح هذه الفرقة في معركة وشقة [42] بين المستعين بن هود وابن ردميل النصراني، فرغم التكافؤ العددي بين الطرفين إلا أن القوات الخاصة النصرانية أحدثت الفارق وحققت الانتصار على المسلمين [42].

ويمكن تقديم مثال على أهمية هذه الفرقة في معركة الزلاقة 479 هـ/ 1086م وهي معركة عاصرها الطرطوشي بين القوات المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين متحد مع قوات ملوك الطوائف ضد ألفونسو السادس، حيث استطاعت الفرق الخاصة للمرابطين المتكونة من العبيد السود التي تبلغ أربعة آلاف أن تنهي المعركة وتحدد مسارها، بل وصلت إلى ألفونسو السادس وطعنته في الفخذ الأيمن [43].

6- إستراتيجية الموقع واختياره:

يعد من أهم العناصر الإستراتيجية لتحقيق النصر، فبقدر توفيق القائد ومهارته في اختيار أصلح المواقع التي تدور عليها المعركة بقدر ما تكون رهانات النجاح كبيرة، لأن الموقع يضمن سلامة الجيش وتنفيذي رهانات الخطة [44].

ويحث الطرطوشي على اختيار الموقع والتموقع فيه أن يكون إستراتيجيا ومرتفعا حتى يرى الجيش والمعركة في الجهات الأربع، واقتبس ذلك من خلال سرد معارك المنصور بن أبي عامر خلال دراسته وتتلمذه عند أبا الوليد الباجي [45].

ويؤكد هذه النظرة كذلك عبد الرحمن الشيرازي، حيث يقول: " أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم فيقصد أوطأ الأرض مكانا وأكثرها مرعى وماء وأكثرها سعة وأن يكون الموضع سالما من جبل أو شجر " [46]. ويشاركهم في هذه النظرة كذلك الحسن بن عبد الله الذي يقول: " يجب على الملك قبل الحرب الفحص على الأرض ومكامنها وحفائرها ومحايضها وطرقها ومناهلها ومعاطشها ليكون على بصيرة لمن معه " [47].

7- إستراتيجية التمويه:

يركز عليها الطرطوشي ويجعلها أساسية عند القائد خاصة؛ الذي وجب عليه – حسب رأيه – أن يخفي شاراته وألوان خيله وعدم ظهوره ولزومه خيمته ليلا ونهارا وليبدل زيه ويغير خيمته وإذا انتهت الحرب فلا يمشي في عدد قليل من الجند خارج عسكره فإن عيون عدوه قد تتربص به.

ويقدم لنا الطرطوشي مثالا على ذلك، فمقتل جورجير حاكم إفريقية من طرف المسلمين الفاتحين بقيادة عبد الله بن أبي السرح عندما ظهر جورجير بألوانه وخيله وشاراته، والخطأ نفسه قتل به لوذريق، الذي عرفه طارق بن زياد بخيله وعلامته وخيمته [48].

8- الحشد وإستراتيجية العدد:

يجعل الطرطوشي من العدد الكبير للجيش في المعركة نقمة ونعمة، فالكثرة تستعمل للرعب والتأثير النفسي، ولكنه يكون نقمة إذا حاد عن ضوابطه وصار إعجابا، فهذا هلاك الجيش حسب

الطرطوشي؛ الذي يصير جسدا بلا روح، فأما العدد القليل فهو للنصر خاصة إذا اجتمعت كلمتهم وترابطوا، فالواحد منهم يعادل الألف من ناحية التشبع الإيماني، ويضع الطرطوشي أربعة آلاف مقاتل كعدد جيد للانتصار [49].

9- فن القيادة عن الطرطوشي:

أعطى الطرطوشي للقيادة العسكرية وأصحابها أهمية بالغة باعتبارها العقل الذي يخطط ويدبر ويرسم معالم النصر والقيادة التي تعتبر الفن الذي يستطيع من خلاله التأثير على توجيه الآخرين إلى هدف معين عن طريق الثقة والاحترام، وهي السلطة التي يتمتع بها الفرد في الخدمة العسكرية تجاه من هو أكثر منه رتبة [50].

ونظرا لتعدد مجالات القيادة فإننا سنركز على القيادة العسكرية في مفهوم الطرطوشي، التي تتضافر فيها عوامل اجتماعية وخلقية وصحية وثقافية ترسم معالم القائد الناجح.

ويضع الطرطوشي صفات القائد الناجح عسكريا، كالشجاعة والجرأة والبسالة والحزم وقوة الإرادة والبأس والتمرس بالحروب عالما بفنون القتال عارفا بحيلها وخداعها صارم القلب صادق البأس بصير بصنوف العدو وقوته، وشبه الطرطوشي القائد بالأسد، حيث يقول: " أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد " [51].

10- الحيل والخداع:

وهي من الأساليب التكتيكية وتعني مجموعة من الإجراءات المنسقة وتنفيذها لإخفاء الحقائق وإقناع العدو وحلفائه بمفهوم غير حقيقي حيث يقود العدو إلى اتخاذ قرارات خاطئة وهي جزء من العلم العسكري [52]، وهي أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتزله عما هو فيه وهو الاحتيال والمراوغة، وهو عنصر أساسي في تحقيق المفاجئة، وهناك عدة ألفاظ ذات صلة بالخداع كالتورية، المداراة، المعاريض، التبييت [53].

ويصفها المرادي بأنها مواد العقول ونتائج الفكر والتجارب، وهي أنجح من القوة [54]، ومن الحيل التي يعتمد عليها القائد – حسب الطرطوشي – هي أن يوهم خصمه بأن قلب جيشه قد انكسر مما يكون طعما واستدراجا للعدو ثم يطبق عليه الجناحان فيصبح بين فكي كماشة، حيث يقول في هذا الشأن: " فيخيل القلب قصدا واعمدا ولا يغادر به كبير أمر حتى إذا توسطه العدو اشتغل بنهبه وطبقت عليه الجناحان " [55].

11- الاستطراد:

يسمى التراجع التكتيكي، وهو أن يظهر القائد الهزيمة أمام عدوه، ليتتبعه فيقوم بإبعاده عن حصونه بحيث تطول المسافة بينه وبينها، ثم يكر عليه مرة أخرى فيهزمه [56]، حيث يقول الطرطوشي في هذا الأسلوب: " والغارة إن بعد والاستطراد إذ ولى " [57].

ويؤكد هذه النظرة كذلك الهرثمي، حيث يقول: " إذا استطرد العدو لكم وراهجوا فلا تحملوا عليهم حتى يسكن الرهج ويثبت لكم " [58].

12- الحرب النفسية والإشاعة:

لم يغب هذا العنصر في فلسفة الطرطوشي العسكرية، حيث ركز عليه وبين تقنياته كإفشاء الغلبة وإظهار السرور فرب كلمة هزمت عسكر، وكذا إرسال كتب مدلسة إلى العدو وبثها في جيشه ويكتب على السهام أخبارا مزورة ويرمي بها في معسكرات العدو [59].

وعموما فالحرب النفسية أكثر خطورة من الحرب العسكرية لأنها تستخدم وسائل متعددة موجهة لإثارة الأعصاب ووجدان الناس، وهي حرب دفاعية هجومية تحاول بناء معنويات رجالها وتحطيم معنويات الآخر [60]، وهي حملة مخططة تستخدم فيها الدعاية والشائعات لإحداث تفكك وارتباك عند الخصم [61].

13- العيون:

وتسمى عندنا في الوقت الحالي بجهاز المخابرات والجوسسة، وهي من أهم الأساليب التي لجأت إليها

الأمم والدول على مر التاريخ، فالمصطلح من حيث اللغة يعني العين والجاسوس، فمدلولهما واحد عند أهل اللغة من حيث المضمون، فالعين هو الشخص الذي بعثت لتجسس الخبر [62].

إن الجاسوس يسمى عينا لأن جل عمله بعينه أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، كأن جميع بدنه صار عينا، أما من حيث الاصطلاح فهي تعني صنف من التركيبة العسكرية تعمل على جمع المعلومات المتعلقة بالعدو من حيث قواته وقياداته وخططه وإمكانياته [63].

واختيار الجواسيس لا يتم اعتباطيا وإنما وجب أن تتوفر فيهم شروطا كاللياقة البدنية والشجاعة والقدرة على التمثيل ولعب أدوار المعركة وإتقان لغة العدو ومعرفة الطرق والمسالك والقدرة على القراءة والكتابة [64].

وعن أهمية العيون يقول الهرثمي: " لتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقا " [65].

ويؤكد هذه النظرة كذلك الشيرازي، حيث يقول: " وأن يتعرف القائد أخبار عدوه بالجواسيس الثقات التي تكون له عندهم مكانة ليكون خبيرا بأحوالهم " [66].

إن هذا الأسلوب المهم في نتيجة الحرب وتحديد مسارها لم يهمله الطرطوشي في تنظيره العسكري الحربي، حيث يجعل من إذكاء العيون واستطلاع الأخبار وبث الجواسيس والدس إلى قادة العدو بشراء ذمم بعض الجواسيس للخدمة مقابل الوعد الجميل بالهبات والهدايا والتحف مقابل كشف المستور والأمور السرية للدولة الخصم [67].

14- إستراتيجية الكمين:

يعتبر الكمين [68] من أهم الأساليب في التنظير الحربي عند الطرطوشي، حيث يقول: " وكم من عسكر استبيحت بيضته وقل عزمه بالكمناء وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحتى الذمار يلتفت فيرى وراءه بند منشور أو يسمع طبول فحينئذ همته خلاص نفسه " [69].

والكمين تكتيك قتالي تعرفه القوات النظامية والكمناء وجب أن يكونوا على خيول صحاح شاكين في سلاحهم بدرقهم وآلاتهم وطبولهم فإن خرجوا من الكمين بالعلامة التي تواصوا بها وضربوا الطبول بغير صياح [70].

وأصحاب الكمين عموما وجب أن يكونوا من ذوي الجرأة الشجاعة والصرامة وليس بهم أنين ولا يعال وعطاس ولا يخيف سباعا أو طيرا ولا وحشا وأن يكون موضعهم خفيا مستورا، ولعل أول من استخدمه هو خالد بن الوليد في معركة الولجة بالعراق ثم عمرو بن العاص مما يدل على أن إستراتيجية الكمين كانت معلومة لدى المسلمين [71].

حتى أن يوسف بن تاشفين وهو معاصر للطرطوشي قد أدرك في حروبه أهمية هذا العنصر، بل قدم له الشاعر ابن الصيرفي [72] بيتا يبرز فيه أهمية الكمين:

واحذر كمين الروم عند لقائها واحفظ كمينك خلفا إذ تدفع. [73]

15- أهمية القلب في التنظير الحربي عند الطرطوشي:

يعطيه أهمية بالغة عكس الميمنة والميسرة، حيث وجب أن يحتوي على قوات خاصة حسبه أكثر تدريبا وبسالة وشجاعة حتى يتم تأمين الجناحين، وإذا تمزق القلب حسبه انهار الجناحين لأنه مصدر قوة الجيش، فقلما نجد عسكرا انكسر قلبه فأفلح [74].

الخاتمة:

من خلال استعراضنا للاستراتيجيات التنظيرية الحربية في فكر الطرطوشي استنتجنا ما يلي:

- مصدر لا غنى عنه بالنسبة للباحثين في الاستراتيجيات العسكرية في التاريخ الإسلامي الوسيط وكذا للطلاب العرب في الأكاديميات العسكرية لربط الماضي بالحاضر.

- تنظير الطرطوشي الحربي أثبت وجود مدرسة عسكرية إسلامية متفتحة ومسايرة لما يجري حولها من تطورات في مجال التكتيك عكس ما توصف به من قبل المستشرقين مثل ليفي بروفنسال ورينهارت دوزي، وهوشي ميراند بالجمود والعفوية.

- الطرطوشي مثل النخب العسكرية في عملية التنظير وهي كثيرة كابن قتيبة في عيونه والحسن بن عبد الله العباسي في أثاره والمرادي في إشاراته.

- محاولة إحياء التراث العسكري الإسلامي وتقديمه بمنهج يليق به من حيث لغته ومصطلحاته وأهدافه.

- ولعل جهود الباحثين في المملكة المغربية خاصة الطبقة العسكرية في مجال كتابة التاريخ العسكري للمملكة مثل الدور الدفاعي للمرابطين والموحدين بالأندلس لمحمد زين العابدين الحسني، ص 103، والأساليب التكتيكية العسكرية عبر تاريخ الحروب المغربية للكولونيل أحمد البسيري، ص 130، في إطار قافلة التاريخ العسكري المنظمة عن طريق اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، ط1، 2007 قد يمهد الطريق للكثير من الباحثين للاشتغال بهذا النوع من التاريخ.

الهوامش:

[1] – أنظر مثلا: دراسة جمال الدين الشيال: أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد، محمد عبد الله عنان: تراجم شرقية وأندلسية، نعمة منى: أدب المحاضرات في الأندلس، رسالة دكتوراه، كلية الأداب، الرباط.

[2] – أنظر مثلا: كتب التراجم والسير كيف قدمته كابن بشكوال في كتاب الصلة، ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، ابن فحون في الديباج المذهب، ابن خلكان: وفيات الأعيان، الزركلي: الأعلام، الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، فهذه المصادر لم تشر إليه أبدا من الجانب العسكري فقدمته فقيها وعالما ورحالة.

[3] – طرطوشة Tortosa مدينة في الأندلس تقع على جبل مسورة اشتهرت بكثرة وجودة خشبها الذي يستعمل في صناعة المراكب خاصة خشب الصنوبر ولها أربعة أبواب ملبسة بالحديد، وقد سقطت طرطوشة في أيدي النصارى 543 هـ/ 1143م وقد اشتهرت بنشاطها العلمي والثقافي، أنظر: الحميري عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل، ط2، بيروت، 1988، ص 124-125، محمد عبد الله عنان: الأثار الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1998، ص 120-121.

[4] – ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، ج4، ص 262، 263، 264، ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1996، بيروت، 272-273.

[5] – جمال الدين الشيال: أبو بكر الطرطوشي العالم الزاهد الثائر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ص 32.

[6] – الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط1، القاهرة، ج1، ص 175، 177، محمد عبد الله عنان: تراجم شرقية وأندلسية، ص 297.

[7] – أبو بكر الطرطوشي: سراج الملوك، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1994، ص 32-34.

[8] – محمد عبد الله عنان: تراجم شرقية وأندلسية، ص 294.

[9] – جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ص 86.

[10] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 26.

[11] – عند قراءتنا الشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن رضوان المالقي نجد أنه اقتبس ثمانون بالمائة من ماده من سراج الملوك للطرطوشي، أنظر: ابن رضوان المالقي: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1984.

[12] – ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ص 99.

[13] – هو خال والدة الطرطوشي اسمه أبو الوليد بن فتحون كان ضمن جيش سرقسطة عرف بالشجاعة ملما بأمور الحرب وفنونها وهو من فئة الفرسان وحظي بمنزلة كبيرة في جيش بني هود حتى أن المستعين بن هود يمنحه في كل عطية خمسمائة دينار، فكانت النصارى تهاب لقاءه ومبارزته ودخل في أساطيرهم، من ذلك ان الفرس الرومي عندما يسقيه صاحبه ويتوقف عن شرب الماء فيقول له صاحبه هل رأيت ابن فتحون في الماء وهذا دليل على تأثير هذه الشخصية، أنظر: أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 701.

[14] – المصدر نفسه، ص 685-689.

[15] – نفسه، ص 685.

[16] – نفسه، ص 689.

[17] – نفسه، ص 688-689.

[18] – سورة الأنفال، الآية 60.

[19] – الشيرازي، ص 167

[20] – إبراهيم إسماعيل كاخيا: القواعد الأساسية في إعداد الدولة للحرب، مجلة كلية خالد العسكرية، وزارة الدفاع، عدد 91، السعودية، 2007، ص 66.

[21] – أبو حمو موسى الثاني الزياني: واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 2012، ص 210.

[22] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 689.

[23] – الحسن بن عبد الله العباسي: آثار الأول في تدبير الدول، ص 330.

[24] – الحرب معاناة لا يتحملها إلا الإنسان الصحيح نفسيا وعقليا وجسميا، أي الإنسان السوي، وفي هذه المجالات الثلاثة للصحة يكمل بعضها البعض ذلك أن الخلل الجسمي يؤثر على الناحيتين العقلية والنفسية، والخلل العقلي يؤثر في الجسم والنفس، والخلل النفسي يؤثر في الجسم والعقل ويعطل التفكير السليم، لذلك تأسس علم خاص سمي بعلم نفس المعركة، أنظر: محمد فتحي أمين: العلم العسكري مفهومه وتطبيقاته، الأوائل للنشر والتوزيع، ط1، دمشق 2005، ص 60-60. خالد بن حزام القحطاني: إعداد الدولة للحرب، مجلة الحرس الوطني، العدد 242، السنة الثالثة والعشرون، أغسطس، الكويت، 2002، ص 39.

[25] – ألف المسلمون كتبا كثيرة حول تقنيات الرمي والفروسية وهذا دليل على أنهم ساهموا في تشكيل الصورة العسكرية بتنظيراتهم هذه منهم الإصبهاني الحافظ أبا نعيم في كتابه رياضة الأبدان الذي يبين لنا أهمية التدريب البدني في فاعلية الانتصار، كما ألف محمد بن يوسف الشافعي الإيضاح في علم الرمي والسبق، وألف مؤلف مجهول كتاب المخزون لأرباب الفنون في الفروسية وبنودها، وكذا حلية الفرسان لابن هذيل، كما يقدم لنا مؤلف مجهول صاحب مخطوط كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة تكتيكا في المطاردة والطعن، ويبين لنا كيفية تعلمها، حيث يقول: إذا أردت ملاقاة خصمك فابدأ أول واختر لنفسك رمحا لا يكون ثقيلا فتثقب يدك وينفخ صدرك ويقع طعنك، ولا خفيفا فينكسر بل على مقدار زندك، وإذا التقيت خصمك فقابله زجرا واطلبه قهرا... أنظر: الإصبهاني الحافظ أبا نعيم: رياضة الأبدان، دار العاصمة، ط1، الرياض، 1408هـ ، ص 32-33. مؤلف مجهول: صاحب مخطوط كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفيلم رقم ق 32، ورقة رقم 481-482. محمد بن يوسف الشافعي، الإيضاح في علم الرمي والسبق، ميكرو فليم رقم د/1867 ضمن مجموع أ 22 ب 33، الخزانة العامة، الرباط. مؤلف مجهول: كتاب المخزون لأرباب الفنون في الفروسية وبنودها، كان حيا سنة 986 هـ/1597م، المكتبة الوطنية الفرنسية، من 112 ورقة إلى 244 ورقة، أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص 688.

[26] – أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص 681.

[27] – الطرطوشي، المصدر السابق، ص 699، فاروق عمر فوزي: التعبئة وأساليب القتال، د.ط، بغداد، 1988، ج4، ص 205-206.

[28] – الهرثمي صاحب المأمون: مختصر سياسة الحروب، تحقيق عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964، ص 36.

[29] – يقصد سورة الأنفال

[30] – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 271.

[31] - المزاريق جمع مزرق وهو الرمح القصير، وقد يكون سنانه مربعا حادا يخرق الدروع، أما الدرق فهو نوع من التروس اشتهرت به قبيلة لمطة في المغرب يصنع من حيوان يسمى اللمط يشبه البقر وهي قطعة مدورة وسطها مقبب وفي بطنها عروة تمسك منها، وكانت مشهورة عند الجند المرابطين، أنظر: الإدريسي محمد الشريف، صفة أرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، نشر هنري بريس، الرباط، 1936، ص 59، ابن منكلي، الحيل في الحروب، ص 50، أبو بكر الطرطوشي، المصدر السابق، ص 179.

[32] – الطرطوشي، المصدر السابق، ص 699.

[33] لقد تكلمت المصادر المتخصصة في كيفية اختيار هذه الأسلحة وطرق صنعها وأنواعها وأفضلها وأجودها وثقلها وخفتها وطولها وقصرها فنقلها الباحثون ونسخوها كما هي دون التطرق إلى الجانب التكتيكي لهذه الأسلحة في المعركة، أنظر: ابن سلام: كتاب السلاح، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط2، دمشق، 1985، ص 19-20، الحسن بن عبد الله العباسي: آثار الأول في الدول، ص 313، 115، 319.

[34] – هو جميع الإجراءات والتصرفات الإدارية العاملة على تأمين المتطلبات اليومية للقوات عن طريق التموين بالإعاشة والذخيرة والمعدات والأسلحة ومختلف التجهيزات، انظر: محمد صفا: المرجع السابق، ص 26.

[35] – يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص 246.

[36] – ابن منكلي: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، ص 217، ياسين سويد: المرجع السابق، ص 289.

[37] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 701.

[38] – نعيمة منى: أدب المحاضرات في الأندلس خلال القرن السادس، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية 1999-2000، ج2، ص 332.

[39] – ابن منكلي: المصدر السابق، ص 222.

[40] – ابن رضوان المالقي: الشهب اللامعة، ص 394.

[41] – الحسن بن عبد الله: المصدر السابق، ص 339، أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 685.

[42] – هي مدينة بالأندلس كبيرة قديمة رائعة البنيان ذات صور عجيب الإتقان بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا، كريمة التربة تشتهر بطيب الكمثري والزعرور، أنظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 194-195.

[42] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 686.

[43] – ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 147، الحميري: المصدر السابق، ص 92، شوقي أبو خليل: الزلاقة، دار الفكر، ط1، بيروت، ص 50-54، فتحي زغروت: حركة الجيوش الإسلامية، ص 321.

[44] – فتحي زغروت: المصدر السابق، ص 234.

[45] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 687.

[46] – الشيرازي عبد الرحمن: النهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمد حسن وآخرون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ص 167.

[47] – الحسن بن عبد الله: المصدر السابق، ص 331.

[48] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 692-693، الحسن بن عبد الله: المصدر السابق، ص 339.

[49] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 698.

[50] – محمد السيد الوكيل: القيادة والجندية في الإسلام، دار الوفاء، ط3، مصر، ج1، 1988، ص 115.

[51] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 679-682، عديم هوصان الشلوي: القيادة الميدانية المعاصرة، مجلة الحرس الوطني، عدد 148، نوفمبر، الكويت، 1994، ص 60.

[52] – جمال أحمد سليمان أبو ريدة: الخدع العسكرية للمسلمين في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2009، ص 9-17.

[53] – خالد محمد عطوى زعرب: الخداع في الحرب، ماجستير في الفقه المقارن، الجامعة الإسلامية، غزة، 2005، ص 22، 83.

[54] – المرادي محمد بن الحسن: كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن وآخرون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ص 64.

[55] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 684.

[56] – فتحي زغروت: المرجع السابق، ص 261.

[57] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 704.

[58] – الهرثمي صاحب المأمون: المصدر السابق، ص 45.

[59] – أبو بكر الطرطوشي: المصدر السابق، ص 681.

[60] – عبد الرحمن محمد العيسوي: علم النفس الحربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص 43-45، سيار الجميل: الحرب ظاهرة تاريخية، مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلد 36، أكتوبر/ ديسمبر، 2007، ص 27، فهد بن العايد: الحرب النفسية في ضوء القرآن الكريم، بحوث الملتقى الدولي حول العسكرية الإسلامية، وزارة الدفاع، السعودية، 2007، ص 504، أحمد زماني: بحوث في النظام العسكري في الإسلام، الدار الإسلامية، ط1، بيروت، 1991، ص 155.

[61] – محمد منير حجاب: الحرب النفسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2005، ص 18.

[62] – الفراهيدي الخليل: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الطباعة والنشر، بغداد، 1984، ج2، ص 255.

[63] – فتحي أحمد محمد: العيون والجواسيس في بلاد الشام في العهدين الزنكي والأيوبي 522هـ- 648هـ / 1128م-1250 م، الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير، غزة، 2011، ص 21.

[64] – المرجع نفسه، ص 74.

[65] – الهرثمي: المصدر السابق، ص 24.

[66] – الشيرازي: المصدر السابق، ص 167.

[67] – الطرطوشي: المصدر السابق، ص 704.

[68] – لغة من كمن أي اختفى ودخل في مكان لا يفطن له ولا يتوقع وجوده فيه، وهو من حيث الاصطلاح تخفي مجموعة قتالية وترصد هدف معادي متحرك أو ثابت لفترة قصيرة من أجل القيام بهجوم مفاجئ ومنسق من مكان محمي. انظر: المنجد الأبجدي، دار المشرق، ط7، بيروت، 1989، ص 849-850. بروبرت غرين: 33 إستراتيجية للحرب: ترجمة سامر أبو هواش، كلمة للنشر، ط1، السعودية، 2009، ص 07.

[69] – الطرطوشي: المصدر السابق، ص 707.

[70] – ابن منكلي: المصدر السابق، ص 199.

[71] – ابن رضوان المالقي: المصدر السابق، ص 401. الهرثمي: المصدر السابق، ص 50. ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، ط1، مصر، 1996، ج1، ص 113-114. موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت/، 1995، ج3، ص 190.

[72] – هو أبو زكريا يحي بن محمد بن يوسف الأنصاري يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصيرفي وهو صاحب كتاب الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية وكان كاتبا لتاشفين بن علي عارفا بأمور الحرب وتدابيرها، أنظر: لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 257-206.

[73] – مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وآخرون، دار الرشاد الحديثة، ط1، 1979، ص 127.

[74] – الطرطوشي: المصدر السابق، ص 684.